بسم الله الرحمن الرحيم

# حين تتكلم مكة

# علامات لا تُخطئها العين!

الحمد لله...

## الغرابة في التصوير، والدقة في الإخبار!

فإننا نقف اليوم بين يدي أثرٍ عجيبٍ جليل، وهو من الآثار التي تثير في القلب رهبةً، وتوقظ في النفس انتباهًا، وتفتح للمتأمل بابًا واسعًا من أبواب اليقين، أثرٌ رُوي عن الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وهو -ولا ريب- في حكم المرفوع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما يتضمنه من أخبارٍ عن الغيب، لا سبيل إلى معرفتها بالرأي والاجتهاد، وإنما هي من قبيل ما يُتلقّى عن الوحي.

وهذا الأثر يتحدث عن ثلاث علامات من علامات الساعة، بل هي في حقيقتها من أعجب ما ورد في هذا الباب؛ إذ تجمع بين الغرابة في التصوير، والدقة في الإخبار، والوضوح في الدلالة على قرب الأمر واقترابه.

## علامات الساعة ليست تاريخيًا جامدًا!

وإن الحديث عن علامات الساعة ليس حديثًا تاريخيًا

جامدًا، ولا سردًا خبريًا يُقصد به الإمتاع الذهني فحسب، بل هو -في جوهره- قضية عقدية، تُثبّت الإيمان، وتزيد اليقين، دليل من دلائل صدق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ يُخبر عن أمورٍ غيبية تقع كما أخبر، فيزداد المؤمن إيمانًا، ويُقام الحجة على المتشكك والمتردد، ومن جهة أخرى، فهي نذيرٌ للقلوب، تُخرجها من سكون الغفلة، وتدفعها إلى الاستعداد للقاء الله، إذا عَلِمتْ أن الساعة قد اقتربت، وأن أماراتِها تتتابع وتتكاثر.

## ثلاث علامات في أثر عبدالله بن عمرو بن العاص!

فعن يعلى بنِ عطاء العامري، عن أبيه، قال: كنت آخذًا بلجام دابة عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-، فقال: "كيف أنتم إذا هدمتم البيت، فلم تدعوا حجرًا على حجر؟".

إنها الصدمة الأولى سؤالٌ يهزّ السامعين: كيف أنتم -أيها المسلمون- إذا هدمتم الكعبة؟ بيت الله الحرام! لا على يد عدوٍ كافر، بل على أيديكم أنتم! حتى لا يُترك حجرٌ على حجر، فيُزال البناء من جذوره وأصوله.

فقال من حوله -وقد استنكروا-: ونحن على الإسلام نفعل ذلك؟! قال: "وأنتم على الإسلام". ثم قال: "ثم يُبنى أحسن ما كان".

فهذه هي العلامة الأولى: أن يُهدم البيت على أيدي المسلمين، ثم يُعاد بناؤه على صورةٍ أكمل وأحسن مما كان.

ثم انتقل إلى العلامة الثانية، فقال: "وإذا رأيت مكة قد بُعِجَت كظائم"[1]، وهي القنوات المائية التي تُحفر تحت الأرض، فتتصل الآبار بعضها ببعض، وتجري فيها المياه وفق نظامٍ دقيق، حتى تَخرُج جداولَ وأنهارًا صغيرة.

وهذا أمرٌ في غاية الغرابة، لأن أرض مكة -بطبيعتها الصخرية- لا يُتصوّر فيها مثل هذا الامتداد المائي تحت الأرض، ولا هذا النظام المعقد من القنوات.

ثم ذكر العلامة الثالثة، وهي أعجبها وأغربها، فقال: "ورأيت البناء يعلو رؤوس الجبال"، وفي رواية: "إذا رأيت البناء قد ارتفع إلى أبي قبيس". وفي أخرى: "إذا رأيت بيوتها قد علت أخشبيها"، أن تُشيَّد المباني حتى تعلو قمم الجبال! في زمنٍ لم يكن الناس يتصورون فيه أكثر من طابقين أو ثلاثةٍ، وربما أربعةٍ أو خمسةٍ في أعظم الحضارات آنذاك.

---

(١) جمع كِظَامَة، وهي: آبارٌ تُحفَر، ويُباعَد ما بينها، ثم يُحفَر ما بين كل بئرين بقناة مِن تحت الأرض، توصِل الماءَ مِن الأولى إلى التي تليها. انظر: غريب الحديث لأبي عبيد (١/١٦٣)

ثم ختم هذا البيان بقوله: "فإذا رأيت ذلك، فاعلم أن الأمر قد أظلّك" [1]؛ أي أن الساعة قد اقتربت اقترابًا شديدًا، وأوشكت أن تدرك الناس، والمتأمل في هذه الروايات يدرك أن الصحابي الجليل كرر هذا المعنى في أكثر من مجلس، وأوصى به أكثر من تابعي، مما يدل على عظيم اهتمامه بهذا الخبر، وشدة إدراكه لخطورة دلالته.

## هل تحققت هذه العلامات!

فأما الأولى، وهي هدم الكعبة وإعادة بنائها، فقد وقعت في زمن عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما- حين تولى أمر مكة بعد انقسام الدولة في العصر الأموي، وكانت الكعبة قد تضررت بالحريق، فهدمها حتى بلغ قواعدها، ثم أعاد بناءها على الهيئة التي كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب أن تُبنى عليها، موافقةً لبناء إبراهيم -عليه السلام-، فكانت أحسن ما تكون، فأدخل فيها ما أخرجته قريش منها (٦ أذرع وشبرًا)، وجعل لها بابين مُلتصِقين بالأرض، أحدَهما في الجهة الشرقية، والآخرَ في الغربية، وهذه وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قال: "يَا عَائِشَةُ! لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٦١)، وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٤٦٢)، وابن الجعد في مسنده (٢١٠٨).

حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، لأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ، وَأَلْزَقْتُهُ بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ"[1]؛ ولذا نفذ الزبير وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم لما دخل الحجاج بن يوسف الثقفي مكة، أعاد بناءها على الهيئة التي كانت عليها في زمن قريش، لعدم علمه بحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان في ذلك تحقيقٌ واضحٌ للعلامة الأولى.

وأما العلامة الثانية، وهي بعج مكة كظائم -أي القنوات المائية- فقد عُرفت مكة بندرة مياهها منذ القدم؛ لذا حرص الخلفاء على حفر الآبار لتلبية حاجة أهلها والحجاج، غير أن هذه الجهود لم تدم طويلاً، إذ كانت الآبار سريعًا ما تنضب، فتعود أزمة الماء بما يصاحبها من مشقة، وفي العصر العباسي قامت زبيدة زوجةُ هارونَ الرشيد بإنشاء مشاريعَ مائيةٍ عظيمةٍ لإيصال الماء إلى مكة، فحفرت الآبار، ومدّت القنوات، حتى صار لمكة نظامٌ مائي تحت الأرض[2]، ومن تأمّل تاريخ مكة،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) سير الملوك، لنظام الملك (ص:١٨٤)

علم أن ما نراه اليوم من تنظيمٍ للمياه وتصريفٍ للسيول لم يكن كذلك في الأزمنة القريبة؛ فقد كانت السيول إذا نزلت على مكة -وهي في وادٍ تحفّه الجبال- اندفعت من كل جانب حتى تدخل المسجد الحرام، بل وتبلغ الكعبة نفسها.

فقد وقع غيرُ مرة أن امتلأ الحرم بالماء حتى وصل إلى باب الكعبة، وتعذّر الطوافُ والصلاةُ من شدة السيل، ثم تغيّر الحال في هذا العصر، بما قامت به المملكة العربية السعودية من مشاريع عظيمةٍ لتصريف السيول، وإنشاءِ القنوات والسدود، وشبكاتٍ تحت الأرض، حتى صارت المياه تُدار وتُوجَّه، بعد أن كانت تداهم المسجد الحرام وتغمره.

وهذا التحول -من سيولٍ تغمر الحرم، إلى قنواتٍ تضبط الماء وتصرّفه- صورةٌ جليّة لما أخبر به الصحابي -رضي الله عنه- من بعج مكة كظائم؛ فهي في نفسها نعمةٌ عظيمة، وحفظٌ للأنفس، وخدمةٌ لبيت الله، ومع ذلك فهي من دلائل تغيّر الأحوال وتسارع الزمان.

وأما العلامة الثالثة، وهي ارتفاع البناء على رؤوس الجبال، فهي من أعجب ما يُرى اليوم في مكة؛ إذ نشهد مباني شاهقةً تعلو الجبال، بل تتجاوزها ارتفاعًا. ومن أبرز ذلك برج

الساعة، الذي يبلغ ارتفاعه نحوَ سِتمئةٍ وواحدٍ من الأمتار، في حين أن جبل أبي قبيس -الذي ورد في الروايات- لا يتجاوز ارتفاعه نحو أربعِمئةٍ وعشرين مترًا، فالبناء قد جاوزه وارتفع فوقه، في صورةٍ لم تكن تخطر على بال أحدٍ.

ولهذا لما رأى عبد الله بن عمرو بيتًا قد بُني على جبل أبي قبيس، ظن أن هذا هو المقصود، فقال متعجبًا: "أبيت ذلك؟"؛ لأنه لم يكن يتصور ما سيؤول إليه الأمر من علوٍّ شاهقٍ يفوق التصور.

## هل كل علامة من علامات الساعة شرٌّ؟

وليس كلُّ ما يُذكَر من علامات الساعة يكون من قبيل المحرَّمات أو الفساد، بل منها ما هو مباح في أصله، بل قد يكون من وجوه الخير التي امتنَّ الله بها على عباده؛ فإن علامات الساعة ليست كلها ذمًّا للأفعال، وإنما هي إخبارٌ عن تغيّر الأحوال وتسارع الزمان.

وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفتوحاتٍ عظيمة، وانتشارٍ للإسلام، واتساعٍ في العمران، وكلُّ ذلك وقع وكان من دلائل صدقه، وهو في نفسه خيرٌ ونصرٌ للمؤمنين، ومع ذلك عُدَّ من أمارات اقتراب الساعة؛ فالعبرة ليست بكون الشيء محمودًا أو

مذمومًا، بل بكونه علامةً على تغيّر نظام الحياة ودنوّ الأجل.

ومن أوضح أمثلة ذلك في واقعنا ما نراه في عمارة مكة وتيسيرها، كوقف الملك عبدالعزيز، فهذا المشروع العظيم ليس وقفًا على أفرادٍ بأعيانهم، بل هو وقفٌ عامٌ يعود ريعه إلى خدمة الحرمين الشريفين، وتيسير إقامة الحجاج والمعتمرين، وتوفير ما يحتاجون إليه من سكنٍ قريب وخدماتٍ متكاملة؛ فهو في ذاته نعمةٌ ظاهرة، وصدقةٌ جاريةٌ ممتدة النفع.

ومع ذلك، فهو داخلٌ في معنى ما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من علوّ البناء واتساع العمران؛ فاجتمع فيه وصفان: كونه خيرًا في نفسه، وكونه علامةً على تغيّر الأحوال واقتراب الساعة.

## التلذذ بسرد الغرائب!

إن المقصود الأعظم من هذا الأثر ليس مجرد الإعجاب بتحقق النبوءات، ولا التلذذ بسرد الغرائب، وإنما أن ننتبه، أن نستيقظ، أن نأخذ حذرنا، كما قال الصحابي نفسُه.

إن هذه العلامات إذا وقعت، فإنما تُنادي فينا: أن الأمر قد أظلّنا، وأن الساعة قد اقتربت، وأن الغفلة لم تعد مقبولة، وأن الرجوع إلى الله لم يعد يحتمل التأجيل.

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى العظيم، فقال الله تعالى:

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ الشورى: ١٨

فالذي لا يؤمن يستعجلها استخفافًا، أما المؤمن، فإنه إذا سمع بأماراتها، ازداد خوفًا وخشوعًا، واستعدّ لها بعمله وقلبه.

نسأل الله أن يوقظ قلوبنا من الغفلة، وأن يجعلنا من المستعدين للقائه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وكُتِبَ في ٧ / ١٠ / ١٤٤٧ هـ

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد